التعليم الابتدائي في لبنان

كما يريد أن يكون

بقلم سامي الشمّاس
المحامي لدى محكمة الاستئناف

ليس المتكلم هذا المساء بالمحاضر . انما هو مقرّر لما قام به غيره من استطلاع آراء الخبراء ورغباتهم في موضوع التعليم الابتدائي في لبنان . فالأفكار اذاً ليست افكاره ، بل هي افكار ارباب التعليم انفسهم . وهذا افضل واجدر بالانتباه .

ولا تخفى اهميّة هذا الموضوع . وقد زادها بروزاً ما نراه من اهتمام به ، في بلاد توالت عليها الخطوب ، فدُفعت الى اعادة النظر في اساليب التعليم والتهذيب حتّى المتبعة في تثقيف أصغر ابنائها . ولعلّهم هم المقصودون خاصّة . لأن السنّ التي يتفتّح فيها العقل ، هي التي يتأثر فيها أثره الأطول بل النهائي احياناً . وقد نجد في الرجل التامّ الرجولية أثرَ الغلام الناشئ اكثر مما نجد اثر الشابّ . ذلك ان الطابع الأول يظلّ في اعماق التأثرات التالية فلا يكاد يمحوه شيء . أوَ لم يقل برغسون « أن الانسان يظلّ اسير آرائه الاولى ، مهما يصنع للتخلّص منها . وإنْ ينسفها بالديناميت في شبابه ترجع اليه يوماً آخذة بثأرها . »

أوَ ليس من حقّ لبنان ان يستفيد من اختبار غيره ، فيقوم بواجبه تجاه هذه الناشئة الحائرة بين المنازع والمشارب المتضاربة . وان تكن الشؤون الاجتماعية ، في بلادنا ، تزداد خطورةً باتصالها بالمشاكل الطائفية فلا يجوز لنا اهمالها ، ولا تبرّر هذه الصعوبةُ نكوصَنا عن المناقشة فيها . وقد طالما أُجل البحث في هذا المشكل . حتى رأى منظّمو الاسبوع الحاضر ان قد حان الوقت لعرضه ودرسه بجرأة تترفع عن النظريّات والمشاحنات العقيمة .

وما الذي يفتقر اليه التعليم الابتدائي في لبنان ؟

سؤال طرحناه على مَن يُحسن الجواب عنه ؛ على ارباب التعليم انفسهم ، اولئك الذين يحيون بحياته . وهذه اجوبتهم متراكمة لدينا . فلنحاول عرضها وتنسيقها :

أو يمكن ذلك في تنوّعها واختلافها ؟ أوَ ليست تتباين الى ما لا نهاية له ؟ وأيّة نتيجة يجوز ان نستخلص منها جميعاً ؟

من الحقّ ان التعليم متعلّق بالطائفة ، فهو منظور اليه ، من عدّة نواحٍ ، بمنظار الطائفيّة المختلف باختلاف الطوائف . ولكن من الحق كذلك ان دارس هذه الأجوبة يشعر بالجذل اذ يرى الاتفاق عامًّا في الشؤون الاساسيّة ، على رغم التباين في دقائق التطبيق . ويتضاعف جذله عندما يتحقّق اننا لم نترك طائفةً او ملّةً الّا استطلعنا رأيها في هذه المشكلة المهمّة . فالنصارى والمسلمون والدروز ، الكثوليك والبروتستانت والارثوذكس ، الموارنة والسريان والارمن ، الاميركان والفرنسيون ، العلمانيون والمرسلون ؛ جميعهم ارسلوا الينا الاجوبة الضافية . ورأينا جميعهم يتفقون في إقرار الغاية من التعليم والطرق المؤدّية الى هذه الغاية .

اما الغايــة فهي التربية قبل التعليم . واما الطرق فمردّها الى تنظيم تعليم وطني حقّ .

١

الغاية من التعليم

يتفق مراسلونا جميعهم على نقطة جوهرية . وهي ان التعليم ليس كلّ شيء . يمكن التلميذ ان يتوصّل الى معرفة القراءة والكتابة والحساب ، ويظلّ مفتقرًا الى الشيء المهمّ في التعليم ، الى الجوهر التهذيبي ، الى التربية التي هي اساس كلّ علم . لقد حفظ كثيرًا من المعلومات . ولكن كيف حفظ ؟ وكيف دُرّب على إنالته الحكم الصائب ؟ والخُلق المستقيم ؟ والقلب الصالح الكبير ؟ ذاك القلب ينبوع الافكار السامية . وهل أُفهم ان من واجبه الطموح الدائم نحو الكمال فالعمل على افادة القريب ؟

هذه التربية الجامعة بين الاجتماع والاخلاق والدين ، غير المنصرفة عن الاهتمام بالجسد ، هي ما يهمّ مراسلينا من ارباب المدارس.

١ — التربية البدنية

اما في ما خصّ التربية البدنية فيحذرون من مجاوزة الحدّ في إجهاد الذهن . وأيّ كارثة تصيب المجتمع ، اذا اهمل المربّون شأن الجسد ، في سبيل انشاء فلاسفة مرتى ! ليعمل التلامذة من ستّ الى سبع ساعات فقط في اليوم في ردهات موافقة للمبادئ الصحية . وهو اقصى ما يُطلب اليهم من جهد عقلي ، في نظر الآنسة أليس قندلفت ، من مدرسة الصنائع والفنون الدمشقية . اما سائر ساعات النهار فتُنفق في أعمال رياضيّة منظّمة وموجّهة توجيهاً مدرجاً نحو الألعاب الرياضية جميعها ، كما يقول الاستاذ مشنوق مدير كلية المقاصد الخيرية في حرج بيروت.

ولدينا الآراء الكثيرة في هذا الموضوع ، وكلّها تنمّ عن جرأة وبعد نظر ، في تربية الجسد . وقد تناول هذا البحث ، قبل اربعين سنة ، عالم كبير في الشؤون التربوية ، هو وليم جايمس ، فجعل اهم مشاكل التربية في اصلاح الجهاز العصبي . قائلًا : اجعلوا من هذا الجهاز صديقاً لكم محالفاً ، والّا انقلب عدوًّا ضارًّا . فهو الذي تحتاجون اليه في الساعات الخطرة والايام العصيبة . واذا ما عملتم على تمرين اعصابكم يوميًّا منذ الصغر ، فالتمسوا الصحة والطمأنينة ، كانت لكم نعم المعين في حاجتكم اليها ، اثناء الكوارث والاضطرابات.

تربية الأعصاب ! أوَ لسنا بأمسّ الحاجة اليها في يومنا هذا . وكأنه لم يمرّ على قول الفيلسوف المربّي اربعون سنة !

٢ — التوازن العقلي

أوَ ضروريٌّ ان نُضيف الى ما تقدّم ان الجسد لا يُربَّى لاتقاء الجسد فحسب . وان غايتنا ليست بان نجعل من ابنائنا رجال مصارعة . وان « أعصاب الفولاذ » اذا ما حصلوا عليها بالتمرين ، لا تفيد وحدها ، ولا تغني عن سائر

مرامي التربية . واي فضل يكون للمدرسة اللبنانية اذا اكتفت بان تخرج للوطن حيوانات جميلة متناسقة الاعضاء ، سليمة الاجسام . ولا يخفى ان الجسد يكوّن حافظ العقل وخصمه معاً . ولم يُخلع العقل عن مقامه ، والحمد لله ! وان البشرية لتفتخر بسقراط الناعس اكثر من افتخارها بخنزير ستوارت ميل الضليع السمين . . .

وهو ما ترمي اليه التربية العقلية والخلقية والاجتماعية والدينية التي يفيض في وصفها مراسلونا ، ولهم الحقّ .

لقد لخّص مونتانيه (Montaigne) المثال الاعلى لنتاج هذه التربية بوصفه «الرأس الحسن الصنع» . فاقامه مناقضاً للرأس الملآن ، والعقل السطحي ، المغرور بالقياسات المادّية ، المعتزّ بالمشاحنات اللفظية ، المتخبط بشكوكه ، الطفيلي ، المتعصّب ، المنصرف عن الناس ، مدّعياً السموّ ، عاجزاً عن كل عمل بنائي . كل هذه المظاهر العقلية تناقض التربية الحقّ . اما هذه فمن مظاهرها الشعور بواجب الفرد الاجتماعي ؛ مع سماحة فعالة غيرى ولكن دون اندفاع خيالي ؛ ورغبة في التقدم ولكن ضمن احترام التقاليد الصالحة والانتباه للاحوال والظروف ؛ وثقة بالنفس دون غرور ولا تهوّر . وخلاصة كل ذلك توازن عجيب نادر تُشير اليه ضمناً اقوال مراسلينا في مختلف الوجهات من تربية النفس . ولنفصل بعض ذلك مستندين الى هذه الاقوال :

١ — ومن أولاها التربية الدينية الاخلاقية التي يريدها الاب ديد اليسوعي منتشرة في القرى انتشارها في الاوساط المدنية . ويرغبها سيادة المطران بطانيان ، والاب جندر اللعازاري ، على تقدّم دائم . أوَ ليس الدين اثبت قواعد الاخلاقيات ؟ بل قاعدتها الوحيدة في نظر الكثيرين ؟ وهذا التعليم المسيحي الذي يأمل سيادة المطران مبارك أن يراه في المحل الأرفع من المدارس اللبنانية ، يُحفظ ويُشرح يوماً فيوماً ، أوَ لا يظهر ، في عصرنا ، اداة الخلاص الوحيدة للكثيرين من اولئك الذين كانوا ، للأمس القريب ، يعتقدون بامكان ايجاد اخلاقيات دون قاعدة دينية ، وبالتالي دون تبعة ولا عقاب ؟

وغنيّ عن البيان ان هذا الإصلاح في التهذيب الديني الاخلاقي يجب ان

يكون بمعزل عن الاستئثار والضغط على الضمائر ، كما يقول الاب ادمون الكبوشي. يجب ان يتصف هذا التهذيب بروح الامانة ، والتعاون ، والتساهل ، واحترام العمل والنظام. وهكذا نؤمل الوصول ، يوماً ما ، الى توحيد الاخلاقيات في بلادنا

وأية ضمانة لنا ، في عصور تضاربت فيها الآراء تضاربَ النزعات والمثل العليا ، افضل من أن نرى المذاهب الخاصة جميعها تذوب في الايمان المشترك بالله ؛ ذاك الإيمان الذي تشير اليه السيدة ع. الدرزية آملةً ان ترى يوماً ما فضيلة التساهل لا تكتفي باحترام عقائد الغير ، بل تتسامى حتى تفوق نفسها منتقلةً الى التفاهم فالمحبة الفعالة . وعندئذٍ يمكننا ان نبتدئ الاعمال اليومية المدرسية ، وفقاً لرغبة السيدة ع. ، « بنشيد الصلاة الداعية الى الضمير المشترك.»

أملٌ بعيد التحقيق !

وليس من يتجاهل ذلك. ولا شك في انّ الجهود التي تبذل في هذا السبيل ستصطدمُ ، بالمنازعات المتتابعة مدة القرون ، بمظاهر الجهل ، والاحتقار ، والانكماش كلٌ على نفسه المقفلة وعقائده الخاصّة ؛ بل قد تصطدم بفكرة عن الألوهة هي اقرب الى التفريق منها الى الجمع؛لأنها اقرب الى التواكل والتخاذل في التأمل العقيم منها الى التقارب في الجهد ، والتوحيد في العمل المشترك.

وهو ما أشارت اليه السيدة سُودُر قائلةً : « ان فكرة الله الممثلة بالقضاء والقدر ، اللاجئة- في كلّ شيء- الى القول : « من الله ! » ، تدلّ على كل وتواكل يتنافى الجهد والتفكير . بل تدلّ على عقلية شعب انهكته صورة الالوهة الماثلة في العهد القديم. فيجدر اذًا بتدريس العلوم ان يوسّع هذه الفكرة القديمة مولّدًا منها الايمان بإله يدعونا الى الدرس ، فالى الاطلاع على الاسباب والنتائج في هذا العالم المادّي الذي نعيش فيه.»

ب — اما في مجال التربية الاجتماعية فيرى مراسلونا ان التعليم يفتقر الى الاصلاح الوافر. فان فكرة المجتمع ، وفكرة الوطنية ، تتضاءلان امام النزعات الانانية ، شخصيةً كانت ام طائفية . وكلهم يجمعون على ضرورة العمل في

سبيل تعزيز وطنية نيّرة تغذّيها فكرة الكرامة والشعور بالمسؤولية تجاه الوطن.

وقد اهتمّ السيد لاترويت، مدير المدرسة العلمانية، بالمظهر المسلكي من هذه التربية الاجتماعية. فرغب في ان ينظر المهذّبون، في توجيه التلامذة المبني، الى ميزات محيطهم، وحاجات البلد اللبناني. قال:

« يجب علينا ان نمهّد للتوازن الاجتماعي، والنهضة الاقتصادية، بتوجيهنا القوى توجيهاً اصوب، وبانتخابنا انتخاباً أفضل المقدرات والقيَم.»

وزاد اخوة المدارس المسيحيّة، ناظرين الى ناحية عملية من الموضوع: « يجب ان يُسهر على العملة الصغار، فيُدفع عنهم جشع بعض ارباب الأعمال من الذين يستخدمونهم فور خروجهم من المدرسة لقاء اجور زريّة تقرّبهم من الشقاء، اذ لا يدفعون لهم الّا اربع الى خمس ليرات في الشهر، دون غذاء.. »

وسنعود الى هذا المشكل المسلكي.

على ان هناك امورًا غير هذه تقلق خواطر مراسلينا. وقد اجمع الكثير منهم على السؤال: هل تعتقدون ان المدرسة تتمكّن وحدها من القيام بهذا التهذيب الديني، الاخلاقي، الاجتماعي؟ واذا لم يجد الولد في عائلته، كل يوم، وفي محيط عمله، بعد تحصيله الدروس، جوًّا صالحاً ينمي فيه تلك العادات الحسنة التي استفادها في مدرسته، ألا نكون قد بنينا على رمل، أو غرسنا بجهد اشجارًا تفنى زهراتها قبل الثمر؟

ولا دواء لهذا الّا بتعاون وثيق بين المدرسة والعائلة، وبعمل دائب على تطهير الشارع ومشاهده، وبتنظيم المنشآت الاجتماعية العامّة كمؤسسة حماية الصغار في لبنان وامثالها.

٣ — روح التعليم ولغته

هذا هو الاتجاه الذي يودّ مراسلونا ان يوجّهوا فيه التعليم اللبناني. وهو يتناول فكرةً واسعة في المدرسة، كما رأينا، اذ يشمل التربية البدنية والاخلاقية والاجتماعية. بيد انه يفرض اننا حللنا مشكلين جوهريّين في تعليمنا اللبناني وهما: ايّ روح يجب ان يتضمن هذا التعليم؟ أيكون ميّالًا الى الروح

الغربيّة ام يكتفي بشرقيته وحدها ؟ ولا يخفى ان هذا المشكل يهمّ التعليم والتربية معاً ، وهو يقود الى درس مشكل آخر : ما هي اداة هذا التعليم ؟ او ما هي اللغة التي ينبغي ان نستعملها فيه ؟

١ ـــ اما مشكلة الاتّجاه العامّ في ميل التعليم اللبناني فتتعلّق بالتردّد بين الاستشراق والاستغراب.

ويُجمع مراسلونا على الرأي بأننا لا نحلّ المشكل بالمقابلة النظريّة بين الثقافتين الغربية والشرقية ، والحكم في ايتهما افضل بحدّ نفسها . انما يجب الأخذ بالامر الواقع في بلادنا . فنتحقق بالفعل اتجاهاً واضحاً نحو الثقافة الغربية.

للبناني صفات ثابتة من الإيمان المتين ، والتقوى التقليدية ، والمثابرة على الجهد ، والانصراف عن الترف وزخارف العيش ، الّا انها تأثرت في عصرنا بكثير من العادات الدخيلة ، والأخلاق المستوردة . أتى بعضها مع مهاجرينا الراجعين الى اوطانهم . ونتج البعض الآخر من انحدار سكّان جبالنا الى المدن الرازحة اخلاقها تحت عبء استعباد مستطيل . فكان ان روح الاستقلال الشامخ والاباء المتمرّد ، صفة الجبل المنيع ، اخذ يتضاءل في جوّ المدينة المشبع ، في قرون الاستعباد ، باللطف حتى الذلّ ، وباللين حتى الصّغارة . لقد استفاد اللبناني ، في جوار المدينة ، مرونةً في المعاملات ، ومقدرة على انتهاز الفرص . ولكنه فقد الكثير من خلقه النبيل . وفقد ، كذلك ، العلاقة الدائمة بارضه الجبلية مولّدة هذا الخُلق.

وكان ان الجيل الذي أدرك الرجولية بُعيد الحرب الكبرى أخذ يفتّش عن مُصلح لهذه الحال في الثقافة الغربية . وتبعته الى هذا المنزع الاجيال المتعاقبة.

ولكن هل جاءتنا هذه الثقافة بالفائدة المتوخّاة ؟ هل كان صالحاً ، في اصلاح فاسدنا ، كلّ ما نقلناه عنها ؟

ذلك اننا لم نأخذ عن الغرب روح الحريّة وحده ، بل نقلنا ثقافته كاملة بكل ما فيها من حسن وسيّء ، بكل ما تفرض من تطوّرات ، وتولّد من حاجات جديدة.

وروح الحرية نفسه الذي تهافتنا عليه صالحاً في بلاده ، ألا نرى انه كثيراً ما تحوّل ، في عقليّة افرادنا غير المستعدّة ، الى شيء من الثورة على كل نظام ، هو أبعد ما يكون عن المساهمة في العمل البنائي . أوَ لم تقدنا هذه « الحرّية » المستوردة الى مجتمعنا دون تبليد ، الى انظمة سياسية سرعان ما ظهر فسادها ، فضرورة اصلاحها السريع . وكيف لا نذكر هنا عبرة نظامنا الدستوري الذي وُلد فجأةً سنة ١٩٢٦ ، منقولاً عن الشرائع الدستورية الفرنسوية الراقية الى السنة ١٨٧٥ ، فاضطررنا الى تعديله سنة ١٩٢٧ ، اي بعد سنة من ولادته ؛ ثم عُدّل مرة ثانية سنة ١٩٢٩ ، ثم عُلّق سنة ١٩٣٢ . ثم غُيّر سنة ١٩٣٤ حتى عُلّق نهائيًا منذ سنتين.

وسبب كل ذلك أننا اهملنا ، في نقلنا هذه المؤسسات ، أمرًا جوهريًا ، وهو السؤال ، بادئ ذي بدء ، هل توافق بلادنا هذه الدساتير المجلوبة ؟ على فرض انها موافقة بحدّ نفسها . لقد تناسينا ان المؤسسات السياسية الفرنساوية ، التي كانت فرنسة قد اخذت تئن من فسادها ، لم تولد فجأة في تلك البلاد . بل كانت ثمرة تطوّر تاريخي وسياسي مستطيل . تناسينا كلّ هذا ، واغتبطنا بنعمة النظام البرلماني الهابطة علينا ، منبترة الصلة بتقاليدنا ونظمنا التاريخية . ولم نكن على الأهبة الكافية للأخذ بنظام سياسي لم تتطلبه تقاليدنا وطبيعتنا . فأخفق ، وكان لا بد من اخفاقه ، جارًا وراءه هذه الويلات المرزوقة والتي لا نزال نئن منها.

وقد يطول بنا الكلام اذا فصّلنا ضروريات التربية المدنية والوطنية التي يرغب مراسلونا في ان تُعلّم منذ عهد الدراسة الابتدائية . انها توجّه الوطني الى معرفة واجباته المدنية ، مع تفهّم حقوقه ، فلا يطالب بالثانية قبل قيامه بالاولى ، من احترام السلطة ، ودفع الضرائب ، وما شاكل ، مستفيدًا حق مطالبة السلطة باحترام الحريات الشخصيّة . ذلك ان الظلم لا يقلّ فسادًا عن الفوضى.

النقل والتقليد هما الخطران اللذان يحذرهما مديرو التعليم اللبناني . لأنّ النقل ، دون تمييز ، يولّد ، في مجال التهذيب ، ما ولّده من مساوئ في مجال

السياسة ، اذ تأتي نتائجه مفتعلة غير طبيعية ولا موالفة لحاجات البلاد. وهكذا القول عن كل ثقافة اجنبية اذا ما نُقلت الينا دون تمحيص ، ودون إعداد. فانها ، ولا سيا اذا كانت تفوق ثقافتنا ، تولد تلك العقول المنفردة بتفكيرها ، المنقطعة عن محيطها ، المترفعة عن مواطنيها حتى لا تفهمهم ولا يفهمونها. مَثَلها في ذلك مَثَل الشرائع الثورية التي تُفرض فجأة ، فلا يطلبها التطور ولا يتحملها الشعب. غروس غريبة لا تلبث ان تذبل وتجف ، لانها منقطعة الاصول ، فلا تتناول غذاءها الحيوي من ارض البلاد التي نُقلت اليها.

واننا نأسف ألّا يتسع بنا المجال فنسرد صفحات قيّمة للسيدة سرلتو ، حاملةً على ذاك النوع من التغرّب او الاستغراب يتطلّبه بعض اللبنانيين في سبيل الانتفاع المادي ، او في سبيل التظرّف والتحذلق ، مما لا يوافق في شيء جوهر الطبع اللبناني الاصيل.

ولا يعجزنا ان نوجد حلًا موافقاً لطبيعة هذه البقعة ذات المدنية الخاصّة ، وقد اتجهت ، من ناحية ، جهة البحر المتوسط وحضارته الغربية ، واستندت الى الشرق من ناحية أخرى.

وليس الكلام عن التعليم الثنوي والتعليم العالي. فانهما سيتجهان حتماً الى الجهة التي توافقهما ، على كونهما لا يتناولان الّا العدد القليل من الشعب. اما التعليم الابتدائي فيمكن ان نوجد له اتجاهاً متوازناً موافقاً لنزعات الشعب.

وقد أيدت مراسلتنا هذه الآراء بقوة وصراحة قائلة:

« ان التهذيب الغربي الذي نحمله الى هذه البلاد لا ينبغي ان يُفرض كشيء خارجي مصطنع ، حتى وان رغب فيه الشعب رغبة المعجب المخلص. بل يجب ان يكون متوافقاً كل التوافق مع غريزة هذا الشعب الروحية. مهمتنا نحن ان نحمل الجديد ، ولكن ينبغي لنا ان نؤسس مدرسة ذات علاقات حيوية بالبلاد التي نأتيها من الغرب بما نودّ ان نعطيها اياه. وكيف القيام بهذا التطعيم؟ ذلك انه اذا اردنا ان تكون حياة ، فلا بدّ من القيام بتطعيم حقّ! »

ثم تقول ان افضل طريقة يقوم بها الغربيون لعرض آرائهم وجعلها مقبولة هي أن يسلموا هم باخلاص على فهم عقلية بلادنا ، ومحبة شعبنا. ولا بدّ من هذا

التفاهم لمعرفة الحاجات الصحيحة في مجال التعليم والتهذيب . وبالتفاهم وحده يتسع النفوذ المقبول ، لا المفروض ، المحترم العادات والتقاليد ، الساهر على ان لا يحدث التباين الخطر بين المدرسة واهل التلميذ . لأن هؤلاء ، وان كانوا لا يزالون على البساطة الفطرية ، قد يمثلون افضل صفات الوطن . ولا بدّ للتهذيب العصري من ان يحترم ما في العادات القديمة من روعة مؤثرة .

وبهذا الشرط وحده ، اي بغربلة جميع العناصر الدخيلة موافقةً للبيئة اللبنانية ، يمكن القيام بالعمل المجدي .

على هذا الأسّ الوطني للتعليم ماذا يجب ان نبني من المعلومات ؟

يقول الكثيرون بضرورة التوسّع في التعليم الابتدائي العملي بل الفنّي نفسه . ينبغي ان يطّلع صغار اللبنانيين على شؤون بلادهم ، على تاريخهم ، وتقاليدهم ، ومقدّرات وطنهم الاقتصادية ، وعلاقاتهم مع جيرانهم بالنسبة الى مركزهم الجغرافي ؛ ومع كل هذا يجب ان نعزّز التعليم الزراعي في القرى ، والصناعي في المدن ، والتعليم المنزلي في مدارس البنات .

ولا شك في ان تعليمنا الحاضر ميّال الى النظريات اكثر منه الى التطبيق العملي . وهو ما يأسف له الاساتذة ، فيتوقون الى إعداد التلامذة إعدادًا أمثل لمجابهة صعوبات الحياة ، بتعزيز الناحية العملية في اذهانهم ، وتعويدهم النشاط والإقدام . » وذلك بتلقينهم دروس اشياء ، واعمالًا يدوية ، موافقة لما يرونه في محيطهم . وهكذا يصبح التلميذ ، وهو لا يزال في المدرسة ، شاعرًا بلذّة الاختراع والاكتشاف ، ولذة الاختبار الشخصي . ولهذا ينبغي ان يكون للمدرسة بستان صغير ، ومعمل للنجارة مهما كان حقيرًا . »

ويزيد الاب ادمون انه يجب مساعدة التلامذة على ايجاد مهنة لهم يمتهنوها فورَ خروجهم من المدرسة .

اما هذه المهنة فيكاد يجمع المراسلون على أنها مهنة الأرض .

« إنه لمن الغريب ، على قول جريدة « لاسيري » ان لا نجد مدرسة زراعية في هذه البلاد العائشة بفضل الزراعة . نحن لا نرغب في ان نجعل من ابنائنا مهندسين زراعيين . ولكن لنعلّم ، على الأقل ، ابناء الملاكين شيئًا من مبادئ الادارة

الزراعية ، وتنظيم المزدرعات ، كما ينبغي ان تطلع ابناء الفلاحين على المعلومات الضروريات بشأن انواع المزروعات التي تنبت في مناطقهم . ويجب ، في هذا ، ان نبدأ بالاساس ، فننشئ معلمين على بعض المعرفة بالشؤون الزراعية ، فينشرونها بدورهم على تلاميذهم باسلوب يقرن النظرية بالعمل .»

ويفيدنا الاستاذ ستوارت دُد ، من الجامعة الاميركية ، معلومات جديرة بكل اهتمام ، في هذا الموضوع ، قال:

« الغاية الاساسية من مدارس القرى هي ان تُعدّ تلامذتها ، من صبيان وبنات ، لحياة القرية . وليس لمدرسة القرية ان تكون مرقاة لمدارس المدن ، ولا ان توجّه تلامذتها الى التعليم الثنوي . من هذا المبدأ تتفرّع النتائج التالية: ينبغي ان تصبح الزراعة ، النظرية والعملية ، اهم موضوعات التدريس . ويليها علم الصحة . اما القراءة فيجب ان تستخدم لمطالعة النصوص الموافقة البيئة القروية ، لا لفهم الشعر العربي القديم والادب المدرسي . واما التاريخ والجغرافية والعلوم فعليها ان تكتفي بالمحل الثنوي . ويجب ان يعزز التعليم الصناعي للصبيان ، والمنزليّ للبنات . واذا أمكن ، ينبغي انشاء شركات تعاونيّة ، كما هي الحال في الدانمرك ، واسوج ، وبلغارية ، والهند ، ومصر ، وفلسطين . وليس من يُنكر ما قامت به هذه الشركات من تحسين الحياة الاقتصادية في تلك البلاد . وعند ذلك يُصبح من منهاج التعليم شرح المبادئ التعاونيّة . ولا يخفى ان هذه الشركات التعاونية ، اذا ما عزّزتها الحكومة ، وعضدها مصرف مركزي ، قادرة على مساعدة الفلّاحين في حلّ مشاكلهم الاقتصادية ، والصحيّة ، وحسم المشاحنات بين القرى ، وملء الفراغ في الحياة الريفيّة ، ذاك الفراغ المملّ الذي يعزّز النزعة الى المدن في الشبيبة القروية .»

وعلى هذا الوتر من ضرورة تعزيز التعليم الزراعي يضرب الاخوة المريميّون ، آسفين على أنّ الارض تموت ، في بلادنا ، كما في اوربة . اما في بلادنا فان خطر الانصراف عن الارض يبدو اشدّ هولاً ، لأن مدننا لا توفّر للاجئين اليها المشاغل والاعمال الصناعية المتكاثرة في مدن اوربة .

على ان في مدننا صناعات صغيرة يجب تعزيزها ، وتوجيه بعض التلامذة

نحوها كصناعات النجارة والحدادة وما اليها .

ومما يجب إصلاحه ، واعادة النظر في تنظيمه ، تعليم البنات . فهو بحاجة ماسة الى الاتجاه اتجاهاً عملياً ينظر الى مصير البنات في الاسرة ، وفي الحياة . آخذاً ، قبل كل شيء بالتعليم المنزلي من طبخ ، وغسل ، وخياطة ، وما يتبعها من تطريز وتخريم ، اذا أمكن . هذا ما يطالب به سيادة المطران صائغ ، جامعاً الى صوته اصوات اكثر مراسلينا .

ويجب ان نشير الى ان هذا التوجيه العملي والمهني للتعليم الابتدائي ، الذي يطالب به الجميع ، قد خرج من حيّز الآمال والرغبات الى حيّز التحقيق في بعض مظاهره . من ذلك ما قام به حضرة الاباتي باسيل غانم ، رئيس الرهبنة اللبنانية العام ، من تجربة سيكون لها الاثر البعيد في الشؤون الاجتماعية . فقد انشأ تعليماً زراعياً في بعض مدارس الرهبانية ، ودعا العاطلين عن العمل الى حرث اراضي الرهبنة وزرعها بشروط تخوّلهم الملكية التامة لقسم من هذه الاراضي بعد ان يستثمروها بضع سنوات .

ب — اما لغة التعليم ، او الأداة التي يجب ان تُستعمل في المدارس ، فيجمع غالب المراسلين على ان التعليم الابتدائي يجب ان يكون باللغة الوطنية .

«يلزم صغارنا ان يتكلّموا اللغة العربية ، ويتلقّوا المعلومات بالعربية . فان ذكاءهم يكون أتمّ نمواً باستعمالهم لغة الامّ . حتى اذا ادركوا التسع السنوات اقبلوا على اللغة الفرنسوية ، فتفقهوها ، ولكن دون ان يهملوا التحدث بالعربية في مدرستهم . »

هذا ما تراه الآنسة قندلفت . ويشاركها فيه لا اللبنانيون فقط بل الاساتذة الاوربيون انفسهم . وهذه السيدة سولتر ترى انه «من الواجب ان يُخصّ تعليم اللغة الفرنسوية بابناء المدن وحدهم ، وابناء القرى الكبيرة .» ويقرّ الاستاذ لاترويت بانه «مهما يكن من رغبته في نشر لغته الفرنسوية ، يرى هذه اللغة قليلة الفائدة للعملة وابناء المهن البسيطة الذين يؤمّون المدارس الابتدائية الوطنية .

وانه بامكانهم ان يتعلموا بأنفسهم ، اذا ما عايشوا البنات المختلطة في المدن الكبرى ، ما يحتاجون اليه من المفردات الفرنسية التي تسهل معاملتهم مع الفرنساويين.»

... وها اننا انتهينا في هذا القسم الاول ، وهو الأطول ، من عرض آراء الاساتذة ومديري المدارس ، في غاية التعليم الابتدائي وطرق توجيهه . فرأيناهم يجمعون على ان الغاية منه التربية والتهذيب قبل التعليم، وانه يجب ان يتجه الى تهذيب الجسد والروح معاً ، متصفاً بالصفة الوطنية ، مستخدماً اللغة الوطنية.

٢

الطريق الى الغاية

يتعلق القسم الثاني من مشكل التعليم الابتدائي بالطريق المؤدية الى بلوغ الغاية منه ، فيسأل : هل نترك للحكومة ان تنظم هذا التعليم فتوزعه هي على ابناء الرعية ؟ ام يجب الاهتمام بتعزيز المدارس الخاصة ، وهي الكفيلة بنشره ؟

وغني عن البيان ان لكل من النظريتين المتعاكستين حزباً قوياً في بلادنا ، كما ان هناك كثيراً من دعاة التوفيق بعرض الحلول المتوسطة .

اما النظرية الاولى القائلة باحتكار الحكومة للتعليم فتدعمها ، على الغالب ، الاوساط العلمانية والاسلامية ، مؤيدةً السلطة في قولها ان التعليم ، اذا لم تقم به الدولة ، اصبح عرضةً للتأثر بالخصائص الطائفية التي قد تؤدي الى إضعاف التهذيب الوطني الشامل .

وهو ما يعبّر عنه بصراحة مدير المدرسة العلمانية فيأسف لكون المدارس الرسمية لا تضم الّا ٢٠,٠٠٠ تلميذ مقابل ٦٠,٠٠٠ يختلفون الى المدارس الخاصة . ويتفق مع مدير مدرسة المقاصد الخيرية في القول ان التعليم الابتدائي المجاني الإلزامي — وهو تعليم يرغب فيه الجميع — لا يمكن ان يُحقق تاماً الّا اذا تدخلت فيه الدولة تدخلاً تاماً .

واما الاوساط المسيحية فانها معاكسة إجمالاً لمبدإ احتكار الدولة للتعليم .

تقول هذه الاوساط انه لمن الوهم الخاطئ ان تتصوّر المدرسة الرسمية تمثل التهذيب الوطني . انما هذا التهذيب الحقّ تقوم به بالأولى تلك المدرسة الخاصّة القديمة ، المنبثقة من الأرض ، الخليقة وحدها بالمحافظة على التقاليد الوطنيّة ، الساهرة على إنالة تلاميذها تلك الروح الدينية الأخلاقية التي جعلناها احدى الغايات الاساسية للتعليم . اما المدرسة الرسمية فلا تظهر حكوميّة في نظر سيادة المطران صائغ ، الّا بالخارج فقط . وهي في حقيقتها بعيدة عن روح الحياد التي تدّعيها . هي طائفيّة تنتمي الى طائفة واحدة ، الى الطائفة الاسلاميّة . ويزيد الاب ديد أنها « إرث تركته الحكومة التركية التي لم تكن تعترف الّا بالمدارس الاسلامية . »

ويستنتج سيادة المطران حيقاري انه يجب ان تُعزّز المدارس الخاصّة وان تُبذل لها المساعدات الوافرة ، بل ان تُعتبر كالمدارس الرسمية .

وبين هاتين النظريّتين المتعاكستين مجال لحلّ متوسّط . وهو ما يراه الكثيرون في الوقت الحاضر ، حتى من ارباب النظريّتين ، اعتبارًا لأحوال اليوم التي تفرض الحلول الموقّتة . ولهذا رأينا ارباب السلطة أنفسهم يعترفون موقّتاً بالمدارس الطائفيّة ، كما ان ارباب هذه المدارس يتغاضون ، موقتاً كذلك ، عن المدارس الرسميّة .

ذلك ان اصحاب النظرية الاولى يقرّون « بان الانتقال من المدارس الطائفية الخاصّة الى المدرسة الرسمية الموحّدة لا يمكن ان يكون الّا تدريجياً . » ومعلومٌ انه من الصعوبة بمكان إلغاء المنشآت الحافلة بوقار الزمن ثم هناك سبب ماديٌّ هو ان موازنة التعليم الرسمي لأعجز من ان تستبدله بالمدارس الخاصّة جميعها .

ولا يخفى ، فوق ذلك ، ان الإصلاح المجدّد ، اذا ما اردنا ان يكون ناجعاً ، يجب ان يُطبّق وفقاً لمنهاج تامّ في التنظيم المادي والتهذيبي . وما احوج التعليم الرسمي الى هذا التنظيم . يجب ان توزّع المدارس على جميع المناطق . فيُبنى ، في القرية المهمّة من المنطقة ، بناء خاصّ يكون جديرًا بمركز التعليم ، يُنظر فيه الى مقتضيات الفنّ التعليمي ، والى صحة التلاميذ ، مع الاهتمام بإيجاد مسكن المعلم في البناء نفسه . ثم يجب درس منهاج مَرِن للتعليم يوافق اشتغال

القرويّين في المواسم المختلفة ، وهي اشغال كثيرًا ما تتطلب معاونة ابنائهم ، ويستهدف حاجات البلاد آخذًا بالاتجاهات العملية التي أشرنا اليها. ويجب ، قبل كل ذلك ، الاهتمام بتخريج المدرّسين وتنشئتهم تنشئة وطنية خالصة تستند الى الثقافة العامّة ، والتهذيب المسلكي الخاصّ.

والى ان يتحقّق هذا الامر ، يجدر بالسلطة ان تراقب التعليم الخاصّ مراقبة فعّالة . وهو من حقّها ، ومن واجبها كذلك. كما انه يجدر بها ان تولي المدارس الخاصّة ، مقابل هذه المراقبة ، اعانات وافرة متتابعة .

هذا ما يكاد يُجمع عليه ارباب الحلّ المتوسّط ، وما يقبل به اصحاب النظريّتين المتعاكستين قبولًا تفرضه الاحوال الحاضرة .

لقد اطلنا في هذا العرض الموضوعي الجافّ ، رغبةً منا في اطلاع الجمهور على ما اتصفت به اجوبة المسؤولين من روح تجرّد وتساهل خليق بكل اعجاب. لقد توصّلوا ، على تباين نزعاتهم الطائفية ونظراتهم المذهبية ، الى تفهّم لحاجات الوطن اللبناني جعلهم يجمعون ، او يكادون ، على اقرار الغايات ، والطرق ، والمناهج نفسها في إصلاح التعليم اللبناني. وقد رأيناهم ، حتى في مشكل الدولة والتعليم ، يقبلون بالحلّ المتوسّط ، على ما في آرائهم من اختلاف بهذا الشأن .

فليتفضلوا بقبول شكر القائمين بهذا الاسبوع الاجتماعي ، لما اظهروه من تفاهم وددناه شاملًا سائر مظاهر حياتنا الخاصّة والعامّة . اذًا لرأينا جميع ابناء الوطن يستصغرون مشاحناتهم الطائفية والإقليمية ، مؤمنين ان لا حياة للبنان الّا برضع مصلحته فوق المصالح جميعًا .

على اننا ، حتى في هذا الأمل ، نرانا مضطرين الى الاتجاه نحو مهذّبي الناشئة ، ارباب التعليم الابتدائي ، فنضع فيهم ثقتنا التامّة ، راجين ان يكونوا عند هذه الثقة !